العالم كله كنزاً لا يعوض بفعل الغزاة التتار، فهاجر كثرة من العلماء إلى مصر، والتقى فيها علماء بغداد والشام والأندلس.

ونشطت التآليف في الاسلاميات وكان معظمها املاء من رؤوس العلماء تعويضاً لما ضاع من كتب فجاء الخلط والتشويش.

بينما تعثرت الأدبيات والبلاغة بعد هذا التاريخ مدة طويلة، وانصرف الشعراء والأدباء إلى تافه الأشياء مما لا يسمن ولا يغني من جوع وبحث كل عن شيء من صناعة تقيته.

على أن المصنفات اللغوية درست في هذه الحقبة دراسة حرة في معاهد وزوايا حرة، وأشبعت شرحاً واختصاراً، وتأويلاً وتخريجاً وتحشية فبات الأمر يحتاج إلى اصلاح وتنمية وتنقية.

وفروع الدراسة اليوم في مختلف المراحل التعليمية تدرس في الخارج بعناية وتوزن بمقدار، وتعد بالحساب، حتى تأتي الجرعات مساوقة للغرض المطلوب، فلم يشك تلميذهم، بينما أنّ طالبنا، واشتكى تلميذنا، وتململ مدرسنا للأسباب التي أوردتها، فبات الأمر يتطلب اصلاحاً ورأباً، ودقة ووزناً.

والنداء باب حيوي من أبواب النحو له قيمته وأهميته البالغة ولعله أكثر أبواب النحو استعمالاً في كل مكان، ودوراناً على الألسنة، ويلاحظ أن النداء يأخذ خطاً علوياً وسفلياً وأفقياً وحقيقياً ومجازياً وينادى الفرد والجماعة (الحقيقية والمعنوية) وينادى العالم المرئي وما وراء الطبيعة، وينادى العاقل وغيره، والحي والجماد.

ومن المرجح أن النداء مرّ بمراحل تطورية، وكانت له طفولة، مرّ في أطوار: الإشارة والإيماءة والغمزة واللفتة والحركة والبسمة والصراخ المقصود والاستحضار المكتوب، والاستدعاء اللغوي مما يمكننا أن نقول: أن النداء تدرج حتى أخذ صورته المثلى.

ولله در نحاتنا حين قالوا في شمول وتعميم: الكلام لغة: كل ما أفاد، ولعلنا